إذا اعتاد الفتى خوض المنايا

وقال يمدح سيف الدولة عند رحيله من أنطاكية وقد كثر المطر:

[الوافر]

رُوَيْـدَكَ أَيُّـهَـا الـمَـلِـكُ الْـجَـلِـيـلُ
تَـأَنَّ وَعُـدَّهُ مِـمَّـا تُـنِـيـلُ (١)
وَجُـودَكَ بِـالْـمُـقَـامِ وَلَـوْ قَـلِـيـلاً
فَـمَـا فِـي مَـا تَـجُـودُ بِـهِ قَـلِـيـلُ (٢)
لِأَكْـبُـتَ حَـاسِـداً وَأَرَى عَـدُوًّا
كَـأَنَّـهُـمَـا وَدَاعُـكَ وَالـرَّحِـيـلُ (٣)
وَيَـهْـدَأُ ذَا الـسَّـحَـابُ فَـقَـدْ شَـكَـكْـنَـا
أَتَـغْـلِـبُ أَمْ حـيَـاهُ لَـكُـمْ قَـبِـيـلُ (٤)
وَكُـنْـتُ أَعِـيـبُ عَـذْلاً فِـي سَـمَـاحٍ
فَـهَـا أَنَـا فِـي الـسَّـمَـاحِ لَـهُ عَـذُولُ (٥)

= بمثابة السيف الذي يُقاتل به فيحمد اليد التي تحمله، والسيف بطبيعة الحال لا يحمد إلّا من يستحقّ الحمد، لذا فلا يحمد من يتظاهر بأنه بطل وإن حمله.

(١) و (٢) رويدك: تمهّل وتأنّ. تُنيل: تُعطي. يخاطب الشاعر سيف الدولة متوسّلاً منه أن يتمهّل، وألّا يُسارع في الرحيل، فذلك منه بمثابة هبة قيّمة ولو كانت الإقامة لفترة وجيزة؛ إنه طلب لا يُكلّف الممدوح شيئاً ولا يُثنيه عن طموحه وأعماله العظيمة التي تُؤثر عنه، ومع ذلك فهو عظيم في نظر الشاعر.

(٣) الكبت: الإفحام. أرى: أصيب رئته. ثمّة سبب وجيه جعل الشاعر يطلب من ممدوحه التريّث والبقاء ليكبت أعداءه وحسداه ويُسكتهم ويُغيظهم ويكوي أكبادهم، فكلّ من الأعداء والحساد والرحيل والوداع بغيض على النفس، كريه على القلوب.

(٤) تغلب: قبيلة الممدوح. الحيا: المطر. القبيل: العشيرة. يُلحّ الشاعر على ممدوحه بالبقاء حتى ينقطع المطر وينقشع الغيم حياءً من كرم الممدوح الذي ينهمر غزيراً، ويحتار الشاعر في تعليل ظاهرة الكثرة، أهي تتمثل بالسحاب المتراكم ومائه الغزير الكثير أم هي تتمثل بكثرة أفراد عشيرة الممدوح التغلبية؟

(٥) العذل: اللوم. السماح: الكرم، موقفان متناقضان، في البدء كان الشاعر يلوم من =

وَمَـــا أَخْـــشَـــى نُـــبُـــوَّكَ عَـــنْ طَـــرِيـــقٍ
وَسَـيْـفُ الـدَّوْلَـةِ الْـمَـاضِـي الـصَّـقِـيـلُ[١]
وَكُـــلُّ شَـــوَاةِ غِـــطْـــرِيـــفٍ تَـــمَـــنَّـــى
لِـسَـيْـرِكَ أَنَّ مَـفْـرِقَـهَـا الـسَّـبِـيـلُ[٢]
ومِـــثْـــلِ الْـــعَـــمْـــقِ مَـــمْـــلُـــوءٍ دِمَـــاءً
جَـرَتْ بِـكَ فِـي مَـجَـارِيـهِ الْـخُـيُـولُ[٣]
إِذَا ٱعْـتَـادَ الْـفَـتَـى خَـوْضَ الْـمَـنَـايَـا
فَـأَهْـوَنُ مَـا يَـمُـرُّ بِـهِ الْـوُحُـولُ[٤]
وَمَـنْ أَمَـرَ الْـحُـصُـونَ فَـمَـا عَـصَـتْـهُ
أَطَـاعَـتْـهُ الْـحُـزُونَـةُ وَالـسُّـهُـولُ[٥]

= يعذل على عظم كرم سيف الدولة، ولكن استمرار دفق عطائه جعل الشاعر يلوم ممدوحه على الإسراف في العطاء.

(١) النبو: الكلال. يعبّر عن حقيقة مشاعره مقدّراً ممدوحه؛ إنه على يقين أن سيف الدولة لا يحول دون رحيله مطر غزير، وهو سيف يقطع بمضاء دون تردّد وبلا فتور أو كلال، ولكن الأمر يتعلّق بالحبّ الذي يربطه به.

(٢) الشواة: جلدة الرأس، الغطريف: سيد القوم وشريفهم. المفرق: وسط الرأس. ومن مغالاة الشاعر أن السادة الشرفاء يتمنّون أن يجعلوا مفارق رؤوسهم موطئاً لقدمي الممدوح وطريقاً لسيره؛ وذلك يعدّونه تشريفاً لهم، وهم لا يجدون في ذلك غضاضة.

(٣) العمق: الغور من الأرض. لا يُراود الشاعر شكّ بأن سيف الدولة لا يمنعه شيء عن الرحيل، فقد يُوجد من الأمكنة ما هو عميق الغور، وقد كثرت قتلى الأعداء وغطّت دماؤهم الأرض، ومع ذلك فقد عبر الممدوح فوق جثثهم، لذا فإنه لا يخاف عليه من قطع طريق والمطر ينهمر بغزارة.

(٤) يُردف الشاعر معقباً على كلامه أنه اعتاد على خوض الحروب، حيث تكثر جثث القتلى، فمن السهل عليه أن يمرّ بأراض موحلة.

(٥) الحزونة، الواحدة حزن: ما غلظ من الأرض وصعب. يُردف الشاعر معقباً على كلامه مادحاً سيف الدولة، فقد تصدّى لحصون الأعداء ففتحها ودخل عنوة ورغمة ولم تعصه، ولقد عبر ما صعب من الأرض، سواء أكانت سهلاً أم جبلاً فلم تتمرّد عليه بل هي أطاعت صاغرة.

أَتَخْفِرُ كُلَّ مَنْ رَمَتِ اللَّيَالِي
وَتُنْشِرُ كُلَّ مَنْ دَفَنَ الْخُمُولُ(١)
وَنَدْعُوكَ الْحُسَامَ وَهَلْ حُسَامٌ
يَعِيشُ بِهِ مِنَ الْمَوْتِ الْقَتِيلُ(٢)
وَمَا لِلسَّيْفِ إِلَّا الْقَطْعَ فِعْلٌ
وَأَنْتَ الْقَاطِعُ الْبَرُّ الْوَصُولُ(٣)
وَأَنْتَ الْفَارِسُ الْقَوَّالُ صَبْراً
وَقَدْ فَنِيَ التَّكَلُّمُ وَالصَّهِيلُ(٤)
يَحِيدُ الرُّمْحُ عَنْكَ وَفِيهِ قَصْدٌ
وَيَقْصُرُ أَنْ يَنَالَ وَفِيهِ طُولُ(٥)

---

(١) تخفر: تجير وتحمي. تنشر: تبعث من جديد حيًّا. الخمول: سقوط الذكر. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه يُقيل عثرة من نُكب، وجارت عليه الأيام بلياليها المظلمة، فأخذ بيده وأنار طريقه بإنعامه، وبأنه يبعث من دفن في مقبرة الخمول فأعانه مادًّا إليه لينهض ويُساعده حتى يرى النور من جديد وينبه ويعلو ذكره بين البشر.

(٢) و (٣) الحسام: السيف البتّار. البرّ: المحسن. الوصول: الذي يصل الناس فيمدهم بالعطاء والمساعدة. يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه يدعى الحسام، واسمه يُرعب الأبدان والنفوس، ولكن الأمر بالنسبة إليه أنه حسام يقطع دابر الفقر من أربابه بجوده وإحسانه فيردّ إليهم اعتبار إنسانيتهم. وحقاً إن السيف أداة قطع، ولكنه سيف ذو حدّين، فحدّ يقطع قلوب الأعداء بصولته ويُودي بهم إلى الهلكة، وحدّ يصل الأحبّة والأصدقاء برفده وحمايته وتكريمهم بما يقدّم لهم من حماية وعطاء.

(٤) ويُردف الشاعر مادحاً سيف الدولة بالجلد والصبر في ساعات الضيق والحرج؛ فإذا ما اشتدّ أُوار المعركة، والموقف عصيب ثبت ورسخ رسوخ الجبال الشامخة وراح يُثير في صحبه روح الصبر، والكلّ صامت قد تملكه إحساس الخوف، فالرجل منهم واجم فهو لا يستطيع النطق، والفرس نسي الصهيل أيضاً.

(٥) ويُردف الشاعر مادحاً سيف الدولة بالمهابة، لذا فرماح الأبطال تتحاماه لهيبته وقوّة فتكه، ورغم محاولاتهم الإيقاع به ولكن محاولاتهم تبوء بالفشل، فرغم طول الرمح فإنه يتقاصر حالما يُوجّه إلى الأمير.

فَلَوْ قَدَرَ السِّنَانُ عَلَى لِسَانٍ
لَقَالَ لَكَ السِّنَانُ كَمَا أَقُولُ(١)
وَلَوْ جَازَ الْخُلُودُ خَلَدْتَ فَرْداً
وَلٰكِنْ لَيْسَ لِلدُّنيَا خَلِيلُ(٢)

يدفّن بعضنا بعضاً

يرثي والدة سيف الدولة ويعزيه بها في سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):
[الوافر]

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي
وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ(٣)
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ
وَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي(٤)

---

(١) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني: ١: ٢٤. السنان: الرمح. يُردف الشاعر متمًّا فكرته من أن السنان يعجز عن النطق والتصريح بما يُحسّ لو كان لديه إحساس لنطق وصرّح بما يُصرّح به الشاعر في مدحه وثنائه.

(٢) يخاطب الشاعر سيف الدولة، وفي نفسه حسرة، فالخلود على وجه الأرض ليس من طبيعة البشر، ورغم ما يمتاز به من مزايا أخلاقية وجود وعلم للأسف فإن الموت سيخيفه، وذلك من طبع الدنيا فلا يسلم من غدرها أحد.

(٣) المشرفية، السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت. يعمل الإنسان كلّ ما بوسعه ليحمي نفسه من الموت فيستعين بأدوات الموت لدفعه عنه؛ سيوف ورماح يدفع بواسطتها أعداءه من بشر وحيوان، ولكن الموت يتسرّب إلى نفوس البشر بهدوء فيخترمهم واحداً تلو الآخر بلا قتال.

(٤) السوابق: الخيول. المقربات: المعدّة للاستعمال وقت الحاجة. الخبب: ضرب من عدو الخيول، وليتلافى المرء غدرات الموت يأخذ بالأسباب، إنه يأخذ حذره، فإذا به يربط الخيول إذا فاجأه عدوّ ليمتطيها بسرعة ويردّ الكيد عنه إلى نحر عدوه، وتمرّ الأيام سراعاً كأنها خيول في سباق دائم، وإذا ما صادفت بطريقها ضحيّتها أودت بها إلى الهلكة، عندئذٍ لا منجاة.